

العنوان:	رسائل ابن حزم الاندلسي : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	عقيلان، تميم أحمد
مؤلفين آخرين:	خريوش، حسين يوسف(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 207
رقم MD:	720493
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت 456 هـ ، التراجم، الرسائل التاريخية، النقد الادبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/720493

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

عقيلان، تميم أحمد، و خريوش، حسين يوسف. (1994). رسائل ابن حزم الاندلسي: دراسة تحليلية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/720493>

أسلوب MLA

عقيلان، تميم أحمد، و حسين يوسف خريوش. "رسائل ابن حزم الاندلسي: دراسة تحليلية" رسالة ماجستير. جامعة اليرموك، اربد، 1994. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/720493>

باب الثامن

البُعد التاريخي

الفصل الأول

أهمية الدراسة التاريخية عند ابن حزم

الباب الثالث

البعد التاريخي

الفصل الأول

أهمية الدراسة التاريخية عند ابن حزم

أخذت الظاهرية مكانها في دراسة ابن حزم وبحثه في التاريخ فإذا هو يُخضع الروايات التاريخية للضبط التام ويعتمد تواتر الروايات، ويتعامل مع هذه الروايات كما يتعامل مع علم الحديث فيُجرح ويُعدّل ثم يثق بنتائج أبحاثه ودراساته. فالتاريخ في نظر ابن حزم علم له منهج موضوعي^(١). ولما كان علم التاريخ الذي ابتدأ بعلم السيرة النبوية قد انفصل عن علم الحديث بعد ما كانا علماً واحداً، من هنا كانت لابن حزم فيه تلك الثقة. وكان ابن حزم قد اعتمد العقل جنباً إلى جنب مع النقل، وخاصة فيما كان يبدو له غير معقول بعد تمحيصه لمتون الروايات ولا سيما تلك التي تتعلق بأخبار الأمم الأخرى مُركّزاً أشدّ التركيز على الروايات التي تتعلق بالديانة اليهودية، فكان يدرسها ويناقشها بمنتهى الدقة ليُبَيِّنَ زيفها، ويكشف عن بطلانها، ومن ذلك ما جاء في كتاب «الفصل» من نقده لقصص التوراة عن لوط^(٢) وإسحاق^(٣). وبهذا يكون ابن حزم قد تميّز عن مؤرخي عصره الذين اكتفوا بمجرد النقل من غير أن يُبدوا رأيهم في شيء.

وكان ابن حزم قد تميّز أيضاً بحرصه على تحري وجه الحق في علم الأخبار إذ حرص على تحديد التاريخ الصحيح بدقّة ليكون واثقاً تماماً من النتائج التي توصل إليها بعد طول بحث ودرس وتمحيص. لذا فنحن نجدّه يدعو إلى عدم انفاق الوقت فيما لا يُجدي، ويُعطي حكماً قاطعاً بأنّ الباحث إذا بحث وأطال البحث فلن يصل إلا إلى النتيجة نفسها التي كان قد وصل إليها ابن حزم^(٤) فهو يقول: «فأصحّ التواريخ عندنا تاريخ الملة الإسلامية ومبدؤها وفتوحها وأخبار خلفائها وملوكها والمنتزين عليهم وعلمائهم وسائر ما انتظم بذلك. وأمّا تاريخ بني اسرائيل فأكثره

(١) انظر ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) الفصل ج ١: ١٢٣، ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٣، ١٢٧.

(٤) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٤: ٧٩، ٨٠.

صحيح وفي بعضه دخل، وإنما يصحُّ منه أخبارهم منذ صاروا بالشام إلى أن خرجوا عنها الخرجة الآخرة، لا من قبل ذلك. وأخبار الروم تصحُّ من عهد الإسكندر لا ما قبل ذلك. وأخبار الترك والخزر وسائر أمم الشمال وأمم السودان فلا علوم لهذه الأمم ولا تواريخ ولا تواريخ. ولم تبلغنا أخبار الهند والصين كما نريد، إلا أنهم أمّا علم وضبط وتواريخ وجمع. وأمّا الأمم الدائرة من القبط واليمانيين والسرانيين والأشمانيين وعمون ومواب وسائر الأمم فقد بادّت أخبارهم جملة، فلم يبق منها إلا تكاذيب وخرافات، وأمّا الفرس فلا يصحُّ شيء من أخبارهم إلا ما كان من عهد دارا^(١) بن دارا فقط^(٢).

ويبين ابن حزم في رسائله فوائد التاريخ فيذكر أن المتأخرين يمكنهم أن يأخذوا العظة وأن يعتبروا بالمتقدمين، فالممالك والأمصار وعظماء الملوك وغيرهم طواهم الزمن على حدّ سواء، ويمكن كذلك من خلال دراسة التاريخ أن ينجذب المرء لصفات الكرماء ويتشبه بهم كما ينفر من صفات اللئام وفاقدي المروءة وغيرهم من ذوي الخصال المذمومة، ويرى فائدة ثالثة وهي المتعة فيلذُّ للنفس أن تقرأ قصص الماضين وتجد فيه راحة ونزهة^(٣).

وفي رسالة «حجة الوداع» يبين ابن حزم أنه يتعامل مع حوادثها بصدق ودقة من غير زيادة ولا نقص ولا سيما أن التاريخ هنا هو تاريخ ديني يتعلق

(١) دارا بن دار: هو دارا بن بهمن بن اسفنديار وكان يلقب جهرا زاد يعني كريم الطبع، فنزل ببابل، وكان ضابطاً للملك قاهراً لمن حوله من الملوك يؤدون إليه الخراج، وبنى بفارس مدينة سماها دارابجرد، وكان معجباً بابنه دارا، ومن حبه له سمّاه باسم نفسه، وصيّر له الملك بعده، وكان ملكاً اثنتين وعشرين سنة. ثم ملك بعده ابنه دارا وبنى بأرض الجزيرة بالقرب من نصيبين مدينة دارا، واستوزر انساناً لا يصلح لها فافسد قلبه على أصحابه فقتل رؤساء عسكره، واستوحش منه الخاصة والعامة، وكان شاباً غراً جميلاً حقوداً جباراً سيّء السيرة في رعيته، وكان ملكاً أربع عشرة سنة. (انظر الكامل في التاريخ - للإمام العلامة عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠هـ - المجلد الأول - الجزء الأول: ١٥٨ - دار الفكر - بيروت. ١٣٩٨ - ١٩٧٨ - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض).

(٢) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٤ : ٧٩.

(٣) انظر المصدر نفسه: ٧٢، ٧٣.

بشخصية رسول الله ﷺ، فالأمر هنا شديد الحساسية والخطورة أكثر من غيره من موضوعات أخرى من التاريخ، وهو يستمد شواهد في إيراد الروايات من الأحاديث النبوية القولية منها والفعليّة، ومن الصحابة الذين شاهدوا أعمال رسول الله ﷺ فنقلوها عنه.

وحين تتعارض بعض الأحاديث فإنه يلجأ إلى التوفيق بينها بما أوتي من كفاءة علمية في علوم الحديث والفهم الواسع فيها متناً وسنداً، وغير ذلك. وحين يعجز في مسألة ما يتوقف فيها ويعلن أنه عجز عن معرفة الحقيقة فيها. وهو يواصل البحث دونما كلل ولا ملل ولا يتطرق إلى نفسه يأس ولا قنوط. بل ينهج نهجاً تُسيطر عليه الروح العلمية، ويتعامل مع الروايات والحوادث بجرأة وصراحة ممزوجتين بالتواضع والاعتراف بأن الإنسان عاجز مهما أوتي من علم، فلا بد أن يعرف حده فيقف عنده فهو يقول في مقدمة حجة الوداع: «أما بعد؛ فإن الأحاديث كثرت في وصف عمل رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وأتت من طرق شتى، وبالألفاظ مختلفة. ووصفت فصول ذلك العمل المقدس في أخبار كثيرة، غير ما اتصل ذكر بعض ذلك ببعض، حتى صار ذلك سبباً إلى تعذر فهم تأليفها على أكثر الناس وحتى ظنّها قوم كثير متعارضة. وترك أكثر الناس النظر فيها من أجل ما ذكرنا. فلما تأملنا وتدبرناها، بعون الله عز وجل لنا وتوفيقه إيانا، لا حولنا ولا بقوتنا، رأيناها كلها متفقة ومؤلفة متسلسلة متصلة بيّنة الوجوه، واضحة السبل، لا إشكال في شيء منها، حاشا فصلاً واحداً^(١) لم يلح لنا فصل الحقيقة (فيه) أي النقلين هو منها، فنبّهنا عليه^(٢)».

والتعويل على ظاهر النصوص شيء مفروغ منه في المذهب الظاهري، ورفض الرأي لأنه عندهم تحكيم للمزاج الشخصي، واتباع للهوى فيقول ابن حزم:

(١) هذا الفصل الذي أشار إليه وعدم تبين الصواب فيه هو أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر في حجة الوداع؟ هل كانت صلاته بمنى أم بمكة؟ فلا يعطي ابن حزم جواباً ويرجو أن يظهر الأمر على يد غيره ليكون له بذلك المزيد من الأجر. (انظر حجة الوداع: ٤٤).

(٢) حجة الوداع. لابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم): ٤٣، ٤٤ - علق عليه وقدم له د. معذوق حقي. دار

اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت. الطبعة الثانية ١٩٦٦م.

«ولم نقتحم الحكم فيما لم نقف على بيانه، ولا جسرنا على القطع فيما لم يلح لنا وجهه، ولا قضينا فيما لم نشرف على حقيقته. (وأما حكمنا بالرأي) ومعاذ الله من هذه الخطئة فهي خطئة خسف لا يرضى بها لنفسه ذو دين وعقل. وحسبنا الله ونعم الوكيل»^(١). ويخبرنا ابن حزم عن طريقته في كتابة هذه الرسالة إذ يبدأ فيها السرد بكلامه هو ثم بعد ذلك يذكر الأحاديث التي تؤيد كلامه أو يذكر روايات الصحابة الذين كانوا قد شاهدوا أفعال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويثبّت بإيراد ما ظنّ قوم أنه متعارض من الأحاديث، مثبتاً عدم التعارض ومبيّناً الاتفاق والائتلاف^(٢).

ومن خلال كتابة ابن حزم للأنساب كان يورد أموراً من التاريخ تلقي ضوءاً على الشخصية التي يذكرها لزيادة التعريف بها، كأن يذكر معارك خاضها أو مناصب تقلّب فيها أو حوادث حدثت له، وأحياناً يضحّد وهماً توهمه بعض النسابين مبيّناً وجهة نظره هو في ذلك الوهم والأدلة التي اعتمد عليها^(٣). وأما في سرد أحداث حجة الوداع فقد كان ملتزماً بأقصى حدود الدقّة والإيجاز، معتمداً على ما جاءت به الأحاديث الصحيحة من روايات، فكان يسرد لتلك الوقائع متجنباً إيراد أي كلمة يمكن أن تخرج عن تلك الروايات التي روتها الأحاديث النبويّة ودونما زيادة أو نقصان^(٤).

واتهم الدكتور عبد الحليم عويس ابن حزم بالتحيز للأندلس من خلال إirاده لبعض المآخذ التي تؤخذ عليه^(٥) فقال: «ولسنا نعفي ابن حزم من مثلب آخر كبير، وهو تحيزه للأندلس. فهذا التحيز القومي له أضراره الكبيرة على خطوات المنهج العلمي. ولسنا ننكر أن هناك عنصراً ذاتياً لدى كل مؤرخ، وأن الموضوعية المطلقة

(١) حجة الوداع: ٤٥

(٢) انظر المصدر نفسه: ٤٤، ٤٥.

(٣) انظر جبهة انساب العرب: ٩٥، ٩٦، ١١٢، ٦٢، ٦٣، ٢٦، ٢٧، ١١٨، ١١٩، ٥٠٢، ٥٠٣، ٨٨، ٨٩، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٤٢، ٤٤٣.

(٤) انظر حجة الوداع- الفصل الاول: ٤٦-٥٩.

(٥) انظر ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ١٧٦-١٨١.

لم تحتقّق حتى في مجال العلوم الطبيعّية، كما أننا لا ننكر أنّه من الناحية العلميّة، فإنّ أكثر مناهج البحث التاريخي قد تأثرت بالبيئة وروح الأُمّة والموروثات الفكرية والعقدية لكن ما نأخذه على ابن حزم ليس هو هذا التأثير الطبيعي، وإنما نأخذ عليه هذا الموقف المبدئي الشعوري في تمجيد «فضائل الاندلس واهلها» ووقوعه بالتالي في أحكام عامة ومقارنات ناقصة ذات نتيجة معروفة سلفاً»^(١) لكن الدكتور عبد الحليم عويس لم يبين كيف كان ذلك الموقف من ابن حزم موقفاً شعورياً، ولا أين كانت تلك الأحكام العامة التي أصدرها ابن حزم ولا اوجه النقص فيما أشار اليه بالمقارنات الناقصة عند ابن حزم. وللحقيقة فبعد قراءة لرسالة ابن حزم في «فضائل الاندلس واهلها» قراءة متأنية فاحصة فقد تبين لي أنّ ابن حزم ذكر التقدم العلمي الذي انتشر في الاندلس في المجالات المختلفة، كما ذكر علماء الاندلس الذين أبدعوا وتفوّقوا على غيرهم، لا من أجل هوى ذاتي كان عنده، بل من باب معرفة الفضل لأهل الفضل ونسبته اليهم، ولأنه وقع في نفسه أنّ هذا هو الحقّ فذكره. وإذا كان علماء الاندلس قد تأثروا بعلماء المشرق أو تتلمذ أكثرهم على علوم المشاركة فذلك لا يجعلهم دائماً في مرتبة أدنى أو انهم يجب أن يظلوا كذلك أو أن يظلوا بمعزل عن الابداع أو التجديد في مجال التأليف وأن لا يحُرّزوا تفوّقاً فيه وما هم بممنوعين من البحث في ميادين لم تكن معروفة عند المشاركة أو حتى التقدم عليهم فيما أخذوه عنهم. فإنّ كان ابن حزم مجانباً للصواب أو مبالغاً فيما قاله فعلى من يدّعي هذا أن يثبت مقولته بأدلة وبراهين مقنعة، وإلاّ فإنّ ابن حزم سوف يظلّ بريئاً مما ينسبُ إليه من ذلك. فكلّ ما في الأمر أنّ الرجل ذكر ما توصّل إليه علمه، فبيّن الصفحات المشرقة في الأندلس، وفاخر بنواحي التقدم. ولكن هل اكتفى بذكر هذه الصفحات المشرقة أم ذكر الصفحات المظلمة أيضاً؟ هل وقف عند الايجابيات أم أنّه ذكر السلبيات كذلك؟ فهذا ابن حزم يُتحدّث لنا عن الفساد الاجتماعي وعن الظلم والاستبداد وغيره ممّا كان سائداً في الأندلس فيقول: (وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر، «أزهد الناس في عالم أهله». وقرأت في الإنجيل أنّ

(١) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ١٧٩.

عيسى عليه السلام قال: «لا يفقد النبي حُرْمَتَهُ إِلَّا فِي بِلَدِهِ» ولا سيما
أندلسنا، فإنها خُصَّتْ مِنْ حَسَدِ أَهْلِهَا لِلْعَالِمِ الظَّاهِرِ فِيهِمْ، الماهر منهم، واستقلالهم
كثيراً ما يأتي به، واستهجانهم حَسَنَاتِهِ وَتَتَبُعُهُمْ سَقَطَاتِهِ وَعَثَرَاتِهِ، وأكثر ذلك مدة
حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد الخ»^(١).

وفي علم الكلام اعترف ابن حزم أن هذا العلم لم تكثر فيه التاليف ولا بز
فيه علماء الأندلس غيرهم فقال: «وَأَمَّا عِلْمُ الْكَلَامِ فَإِنَّ بِلَادَنَا وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَتَجَاذِبْ
فِيهَا الْخُصُومَ، وَلَا اخْتَلَفَتْ فِيهَا النِّحْلَ، فَقُلْ لَذَلِكَ تَصَرَّفُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ»^(٢). وقال
في مكان آخر: «وَأَمَّا الْعِدَدُ وَالْهَنْدَسَةُ فَلَمْ يُقَسِّمْ لَنَا فِي هَذَا الْعِلْمِ نَفَاذًا، وَلَا تَحَقَّقْنَا
بِهِ، فَلَسْنَا نَثِقُ بِأَنْفُسِنَا فِي تَمْيِيزِ الْمَحْسَنِ مِنَ الْمَقْصُرِّ فِي الْمَوْلَفِينَ فِيهِ مِنْ أَهْلِ
بِلَادِنَا»^(٣).

كما اعترف ابن حزم أن هناك عدداً كبيراً من التاليف في الأندلس لم تكن
في مستوى غيرها فلم يذكرها لقصور مستواها. يقول ابن حزم: «وإِنَّمَا ذَكَرْتُ
التَّالِيفَ الْمُسْتَحَقَّةَ لِلذِّكْرِ، وَأَمَّا التَّالِيفُ الْمَقْصُورُ
عَنْ مَرَاتِبِ غَيْرِهَا فَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَى ذِكْرِهَا، وَهِيَ عِنْدَنَا مِنْ تَأْلِيفِ أَهْلِ بِلَادِنَا أَكْثَرُ مِنْ
أَنْ تُحِيطَ بِعِلْمِهَا»^(٤). حتى إذا أتى إلى ذكر بعض تأليفه هو قال: «وَلَنَا عَلَى مَذْهَبِنَا
الَّذِي تَخَيَّرْنَاهُ مِنْ مَذَاهِبِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ كِتَابٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى
لَمْ نَقْصِدْ بِهِ قَصْدَ مِبَاهَاةٍ فَذِكْرُهَا، وَلَا أَرَدْنَا السَّمْعَةَ فَنَسْمِيَّهَا، وَالْمَرَادُ بِهَا رَبُّنَا جَلُّ
وَجْهِهِ، وَهُوَ وَلِيُّ الْعَوْنِ فِيهَا»^(٥) وأما أن يكون ابن حزم قد وقع
في بعض الأخطاء فهذا أمرٌ ممكنٌ ولا يكاد يخلو منه عالم.

وكان ابن حزم يحرص على قيام خلافة قوية تُخَلِّصُ الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْفُسَادِ
وَالضِّياعِ وَتَنْهَضُ بِهَا مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي، ولهذا أَيْدَى الْأُمَوِيِّينَ رَاجِئاً أَنْ يَتَحَقَّقَ ذَلِكَ

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: ١٧٧، ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٥) المصدر نفسه: ١٨٦، ١٨٧.

على أيديهم، وهذا التأييد الذي حظي به الأمويون من قبله لم يكن تأييداً مطلقاً كما توهم بعضهم، فقد أصدر أحكاماً بحق الظالمين وأهل الفساد منهم انطلاقاً من كون ابن حزم يؤيد العدل ويرفض الظلم، ومن لم يقيم حكم الله منهم فقد تعرض للانتقاد الشديد من قبله، ويشهد لذلك رأيه في عبدالله بن الزبير والحسين بن علي ويزيد بن معاوية، فقد أثنى على عبدالله بن الزبير، وعدّ بيعته بيعاً مشروعة، ورأى أن الخروج عليه غير جائز، ويصف ذلك الخروج بأنه (شق عصا الطاعة)، وأما قتل الحسين فهو عنده من أعظم مصائب الاسلام، ويمضي في سرد أخبار يزيد بن معاوية، ويبين همجيته وانحرافه وقلة أدبه في أقدم مقدسات الإسلام واستحلاله قتل أفاضل الناس وأجلّ الصحابة وغير ذلك من الشنيع والفظائع التي ارتكبت بأمر منه أو أمام سماعه وبصره^(١).

وفي حديث ابن حزم عن ضرورة التمييز بين وجوب الطاعة لولي الأمر وبين وجود من هو أفضل منه في رعيته ذكر أن الفرق كبير جداً بين عبد الملك بن مروان وبين جابر وأنس وابن عمر رضي الله عنهم وقال: «إن الفرق بينهم وبينه كالفرق بين النور والظلمة»^(٢). ولم يسلم من الانتقاد الشديد أمويون حكموا الأندلس ولم تكن سيرتهم حميدة مثل الحكم الربضي إذ أورد ابن حزم بعض مفاصله في «الجمهرة»^(٣)، وفي هذا ما يكفي للتدليل على أن ابن حزم لم يكن متعصباً للأمويين عامة ولا لأمويي الأندلس خاصة.

ونرى ابن حزم يؤرخ في «طوق الحمامة» لأشخاص من مراكز مختلفة وقعوا في الحب فأورد من خلال ذلك بعض الأخبار المصاحبة لتعاملهم مع الحب ذكراً أسماء بعضهم ومغفلاً أسماء آخرين^(٤). ونجده أحياناً يذكر الحادثة تحت عنوان «خبر» وأحياناً أخرى يسرد من غير أن يضع عنواناً ويورد أشعاراً له يَصوِّرُ فيها

(١) انظر جوامع السيرة: ٣٥٧-٣٦٠.

(٢) الفصل ج ٤: ١٢١.

(٣) انظر جمهرة انساب العرب: ٩٦.

(٤) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ١١٠، ١٠١، ١٠٢، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ٩٠-٩٢، ٨٧، ١٣١-١٣٣، ١٣٥، ١٣٩.

١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩-١٥٢، ١٥٥-١٥٩، ٢٦٥، ٢٦٦.

ما يَعرَضُ لأولئك العشاق، كما لا يجدُ غضاضةً في أن يعترف لنا بأنه هو أيضاً قد مرَّ بمثل ذلك^(١). ومن خلال سرد ابن حزم لأخبار المحبين كان قد روى لنا أخباراً عن نفسه^(٢). وتحدث أيضاً عن أمور عامة حدثت أيام الفتنة أو بعدها وما آل إليه حال مساكن أهلها التي غدت أطلالاً خاوية بعدما نَعِمَ هو وأقاربه بها زماناً وتقلبوا في أعطاف النعيم، وهو يُشير من خلال ذلك كُلِّه إلى تقلُّب الزُّمن، وتغيُّر الأحوال، وكأنَّه من خلال ذلك يريد أن يفهم الآخرين من ذوي السلطان أو الجاه أو المال أن عليهم أن لا يأمَنوا غدر الأيام، وأن يتَّخذوا العبرة ممَّا صار إليه الماضون^(٣).

وهو يمتنع أحياناً عن ذكر اسم صاحب الحادثة الذي يروي عنه الخبر مع معرفته بذلك الاسم، ولعلَّ ذلك من باب الأدب معه^(٤) ويذكر أنه إنَّما يخصُّ المشهورين بذكر أسمائهم، وأمَّا من هم دونهم فلم يذكر أسماءهم لكثرتهم^(٥). ومن اللافت للانتباه أن ابن حزم يروي لنا في «الطوق» عن أشخاص وهم من ذوي المكانة والشهرة عشقوا ذكوراً وأنَّ ذلك العشق انتهى بهم إلى الموت^(٦). كما يحدثنا عن نساء أو جوار لأشقاء له أو أصحاب بلغ بهنَّ الوجْدُ مبلغاً عظيماً فانتهى بهنَّ إلى الموت^(٧).

ويعترف ابن حزم أنه يبتعد عن صلب الموضوع في بعض الأحيان حين يجد نفسه يتحدث في فتاوى فقهية أو يذكر فهماً معيناً للآيات والأحاديث في مسألة حدِّ الزاني المحصن مثلاً وأنَّ الهوى قد يجرُّ صاحبه إلى المعصية ويستشهد لذلك

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢٦٢، ١٦٤-١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٨، ١٩٩.

٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) انظر المصدر نفسه: ١٨٤، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٩-٢٥٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢٤١.

(٥) المصدر نفسه: ٢٤٣.

(٦) انظر المصدر نفسه: ٢٥٧، ٢٥٨.

(٧) المصدر نفسه: ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣.

بآيات أو بأحاديث أو بأفعال الصحابة^(١) فيقول: «وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر، الذي يستوي في فهمه العالم والجاهل، فكيف من العصمة التي لا يفهمها من ضَعُفَت بصيرته»^(٢).

وفي رسالة «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أورد أبياتاً قليلة من الشعر، كما ذكر نُتْفَأَ عَمَّنْ كان من الشعراء منهم، وكان يسرد سرداً مُخْتَصِراً، وبعبارات قصيرة، مُحَدَّدة، وذلك من خلال عناوين جانبية يضعها ويجعلها مادة الحديث. ويروي التواريخ في يقين تام^(٣). فتحت العنوان الجانبي «مَنْ عَظُمَ أمره مِنَ الْمُتَقَطِّينَ الذين لا يُعْرَفُ لهم أب» يقول: «أبو مسلم السراج صاحب خراسان القائم بدعوة بني العباس: كان لقيطاً بلا شك، وكلُّ ما قيل فيه غير هذا فهو كذب بحت»^(٤). وفي موضع آخر تحت عنوان: «مَنْ وَلِيَ [منهم] مُسِنَّأً قد تجاوز ستين سنة» يقول: «واختُلِفَ في عثمان رضي الله عنه ما بين إحدى وخمسين إلى ثمان^(٥) وسبعين سنة [وقيل أقل من ذلك] والذي لا أمتري فيه أنه لم يكن له إذ وَلِيَ إِلَّا أَقْلٌ من ستين سنة»^(٦).

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ١: ٢٨٤-٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٤.

(٣) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢ - رسالة نقط العروس : ١٠٠، ١٠٦، ١١٢، ١١٤.

(٤) انظر المصدر نفسه: ٩٥.

(٥) المصدر نفسه: ٨٠، وجاءت في الأصل: ثمانين وسبعين.

(٦) المصدر نفسه : ٨٠.

ومع تركيزه الشديد في هذه الرسالة على النوادر والغرائب^(١) فنجده يذكرها في عنوانات جانبية، أقصر الخلفاء عمراً^(٢) أطول الخلفاء عمراً، من قتل أباه من الخلفاء والمتغلبين، من قتل ابنه، من قتل أخاه^(٣)، خليفتان تصالحا، من غرائب الدهر، أخلوقاً لم يقع في الدهر مثلاً، فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلاً، امرأة وليت الولايات، امرأة قعدت للمظالم^(٤) وغير هذا كثير. ومما زاد في اهتمام ابن حزم بتسجيل السيرة النبوية أن ابن حزم نفسه يعدُّ من رواة الحديث وممن نهجوا نهج استمداد الأحكام منه لكل شؤون المسلمين بعد كتاب الله، وهذا الاتجاه معروف عند أصحاب المذهب الظاهري في التعامل مع النصوص عامة سواء أكانت قرآنية أم نبوية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن السيرة لا يمكن أن تنضبط بدرجة انضباط الحديث إذ فيها من الفنون والتشعب ما لا يسهُل إخضاعه للنصوص إخضاعاً تاماً، ومع ذلك فقد ركَّز على الأحاديث إلى حدٍّ كبير في دراسة السيرة، كما هو شأنه في التعامل مع كتابة التاريخ كُله من أجل الضبط شبه اليقيني للحوادث. ومن يتأمل طريقته يراه يورد السند ويتفحصه ليس في الأحاديث التي يرويها فحسب، ولكن في الأسماء التي يذكرها أيضاً.

(١) أُلِف في النوادر كتاب من سفرين: السفر الأول، والسفر الثاني، بعنوان (نوادير ابن حزم) - خرَّجها وعلَّق عليها أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وهي عبارة عن نصوص متميِّزة، فيها قوة في تركيبها وإبداع، كما تُعدُّ ثمرة علم وتجربة وخبرة واسعة، وأحياناً اختار جامعها حكايات غريبة فريدة من نوعها فأوردها كذلك. وكان يُعلِّق بإيجاز وبشكل قليل جداً. (انظر نوادر الامام ابن حزم) - خرَّجها وعلَّق عليها أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) المصدر نفسه: ٨٢.

(٣) انظر المصدر نفسه: ٨٧، ٨٨، ٨٩.

(٤) انظر المصدر نفسه: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٢ وغيرها.

الفصل الثاني

منهج ابن حزم في دراسة التاريخ

الفصل الثاني

منهج ابن حزم في دراسة التاريخ

كنا قد ذكرنا في بداية الفصل الثالث من الباب الأول بعنوان «منهج ابن حزم في الرد على الخصوم» أن منهجين غلباً على ابن حزم في رسائله خاصة وسائر آثاره عامة وهما: المنهج الجدلي، والمنهج التاريخي. ولا يخرج ابن حزم عنهما في دراسة التاريخ فهو يسوق الأحداث ويتتبعها ويحللها ولا يكتفي بمجرد عرضها، بل يفسر ويحلل ويناقش ويعرض الروايات فيقبل منها ما يقبل ويرفض منها ما يرفض لا عن مزاجية أو تعصب، ولكن باستناده إلى أدلة عقلية ونقلية، ثم هو لا يتوانى عن استخدام منهجه في الجدل أيضاً حين يتطلب الأمر ذلك فيعرض روايات معارضية كما هي وأدلتهم ويفسرها ثم يرد عليها بأدلته هو ليثبت ما يراه صواباً ويرد منها ما يعتقد بطلانه. وهذا يظهر لنا جلياً حين نتتبع التفاصيل عنده في دراسة التاريخ. إذن فقد كان لابن حزم نهج خاص في تعامله مع التاريخ يمكن أن يرى بوضوح في رسائله التي كتبها في التاريخ، وهذا لا يعني أنه لم يشترك مع مؤرخي عصره في بعض سمات عرفت عندهم.

ومن أبرز السمات في نهج ابن حزم في كتابة التاريخ الإيجاز، وذلك لاعتماده على النقل باعتباره واحداً من رواة الحديث، هذه ناحية، وباعتباره يعتمد ظاهر النصوص من ناحية أخرى. وقد بدت هذه السمة أكثر ما تكون وضوحاً في كتابته للسيرة النبوية وحجة الوداع. كما أنها تنسحب على كتاباته لباقي رسائله التي كتبها في التاريخ. يقول الدكتور إحسان عباس: (فالنقل أساس من أسس المذهب الظاهري، بل ميزة يعدّها للملة الإسلامية على سائر الملل؛ وعن طريق النقص في النقل، وضعف الثقة في الناقلين هاجم ابن حزم الملل الأخرى ورأها أضعف من أن تثبت للنقد الصحيح)^(١). ويؤكد هذا ما جاء على لسان ابن حزم في كتابه «الفصل»^(٢).

(١) جوامع السيرة: المقدمة: ٥، ٦، وانظر جوامع السيرة: ٧-١٠ وغيرها وانظر حجة الوداع: ٤٣-٤٦، ٦٩-٧٤ وغيرها.

(٢) انظر الفصل ج ٢: ١٠-١٢.

وإذا ما أنعمنا النظر فيما كتبه ابن حزم في «نقط العروس»، وما كتبه في «أمهات الخلفاء» و «جمل فتوح الاسلام»، و «رسالة في اسماء الخلفاء» نجد تكراراً فيها لبعض المعلومات. ففي رسالة «نقط العروس» يورد معلومات عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيقول: «..... لإجماع أهل الاسلام على تسميته خليفة رسول الله، ولم يتسم بهذا الاسم أحد غيره لا ممن استخلفه رسول الله عليه السلام على المدينة في أسفاره، ولا ممن استخلفه على الصلوات في غزواته وحجه»^(١). ويعيد ذكر هذه المعلومة في رسالته «في أسماء الخلفاء» حيث يقول: «وسمي خليفة رسول الله (ﷺ)»^(٢). وفي موضع آخر من هذه الرسالة يذكر أم أبي بكر الصديق فيقول: «وأمه: سلمى: تكنى بأُم الخير، بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، مسلمة، رحمها الله تعالى»^(٣). ويعيد ذكر هذه المعلومة عن أم أبي بكر في رسالة «أمهات الخلفاء» فيقول: «وأُم أبي بكر، رضي الله عنه، أم الخير، مسلمة فاضلة، سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة»^(٤). كما يذكر أيضاً أم عمر رضي الله عنه فيقول: «أم عمر، رضي الله عنه، حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم»^(٥). وهذه المعلومات عن أمهات خلفاء كثيرة يذكرها في الرسالتين: «رسالة في اسماء الخلفاء» ورسالة «في أمهات الخلفاء»^(٦).

وفي رسالة «جمل فتوح الإسلام» يقول ابن حزم مُتحدِّثاً عن الفتوحات في زمن أبي بكر رضي الله عنه: «ارتد أكثر العرب وثبت أهل البحرين من أهل مكة

(١) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٢: رسالة نُقْط العروس: ٥٥.

(٢) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٢: رسالة في اسماء الخلفاء: ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٤) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٢: رسالة أمهات الخلفاء: ١١٩.

(٥) رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٢: رسالة في اسماء الخلفاء: ١٢٨.

(٦) انظر الرسالتين: رسالة في اسماء الخلفاء، ورسالة أمهات الخلفاء من رسائل ابن حزم الاندلسي ج ٢:

والطائف، وكثير ممن سكن اليمن فبعض كفر وارتد، وبعض قال أصلي ولا أؤدي الزكاة»^(١). وقال كذلك في موضع آخر من هذه الرسالة: «وبعث أبو بكر البعوث حتى قهر المرتدين، وراجع الناس الإسلام. وكان قد تنبأ باليمن الأسود العنسي فقتله فيروز الفارسي. وتنبأ طلحة الأسدي في أسد وغطفان، فحاربه خالد، فهرب طلحة ثم أسلم. وتنبأت سجاح اليربوعية، وتزوجها مسيلمة الكذاب، ثم أسلمت بعد قتل مسيلمة»^(٢). وفي موضع آخر يقول: «فأما أبو بكر رضي الله عنه فكانت فتوحه اليمامة، وهي من أجل الفتوح لأنه كان بها مسيلمة، لعنه الله تعالى، يدعي النبوة. ثم دُخ أبو بكر جميع بلاد العرب، فجعلها مملكة يُنفذ فيها حكم الإسلام والولاية والعزل دون معترض»^(٣). وفي رسالة «في أسماء الخلفاء» نجده يقول: «وفي أيامه كانت وقعة اليمامة، ووقعة بصرى، ووقعة اجنادين، ووقعة مرج الصفر»^(٤). كما يورد معلومات عن فتوحات عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما في هذه الرسالة فيقول: «وفي أيامه كانت وقعة فحل واليرموك مع الروم، والقادسية وجلولاء ونهاوند على الفرس، وبُنييت الكوفة والبصرة وفسطاط مصر»^(٥). وفي رسالة «في جمل فتوح الاسلام» يذكر الفتوحات في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما فيقول: «ثم فتح عمر وعثمان رضي الله عنهما جميع الشام ومصر وأرمينية وأذربيجان والرِّي وما دون النهر من خراسان»^(٦). وهذا التشابه في إعطاء المعلومات عن الفتوحات بيّن في الرسالتين: في جمل فتوح الإسلام، وفي أسماء الخلفاء، وهو يصدق على معظم الخلفاء فيهما. كما تكرر إعطاء معلومات أو بعضها عن يحيى بن علي بن حمود في

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: رسالة جمل فتوح الاسلام: ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٦.

(٤) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: رسالة في أسماء الخلفاء: ١٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ١٢٨.

(٦) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: رسالة في جمل فتوح الاسلام: ١٢٦.

رسالة «نقط العروس» والملحق ١ «في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس»^(١). وكذلك فقد كررَ معلوماتٍ عن أمهاتِ أمراءِ بني أمية بالأندلس في رسالة «في أمهات الخلفاء» والملحق ١ «في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس»^(٢).

ولا بُدَّ من أسبابٍ لمثل ذلك التكرار في إعطاء المعلومات، فربُّما يعود ذلك إلى رغبة في التفصيل في معلومةٍ أو أكثر أو الزيادة عليها، لأنَّها ربُّما تكون قد ذكرت في إحدى رسائله ذكراً سريعاً أو بشكلٍ مُجملٍ ثُمَّ أحبُّ أن يتوسَّعَ بذكر بعض الجزئيات الأخرى حولها، أو أن ذلك كان ناجماً عن كثرة محفوظاته وتعدُّد مؤلفاته ممَّا يؤدي به أحياناً إلى النسيان، أو غير ذلك ممَّا قد يعود إلى الاضطراب والفُرْبَة والملاحقة والاضطهاد الذي أصاب حياته فيما بعد، أو ربُّما كان ذلك لعدم مراجعته ما كتب لأول مرةٍ، أو غير ذلك. وسواءً أكان هذا أم غيره فإنَّ من الممكن أن تقوم جهود علمية تعمل على جمع هذه الرسائل بطريقة أخرى يَتِمُّ إيراد جميع المعلومات الواردة عن كُلِّ خليفةٍ مع بعضها بعضاً، قد يُعاد فيها ذكر الأخبار أكثر من مرةٍ، وتكون في كتاب واحد، فذلك أدعى لِعدم تشتُّت المعلومات في الذهن.

وكان ابن حزم يذكر في بعض الأحيان أشعاراً قيلت في مناسبات مختلفة، منها أبيات لعبد الرحمن بن معاوية الخليفة الأموي الأول في الأندلس، وكانت في الحنين إلى الوطن أظهر منها مزيداً من اللوعة للبعد عن معاودة وأحبَّائه^(٣). وكان ابن حزم قد وصفه بأنَّه من الأدباء قائلًا: «وله أدبٌ وشعر»^(٤). كما أورد قصيدة لأبي عمر يوسف بن هارون الكندي متوجِّعاً فيها لشاربي الخمر إثر الأمر الذي أصدره

(١) انظر رسائل ابن حزم الأنديسي ج ٢: رسالة نُقْط العروس: ٩١، والملحق ١ «في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس»: ٢٠٠.

(٢) رسائل ابن حزم الأنديسي ج ٢: رسالة في أمهات الخلفاء: ١٢٢، والملحق ١ «في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس»: ١٩١-٢٠٨.

(٣) انظر رسائل ابن حزم الأنديسي ج ٢ - ملحق ١ «في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس»: ١٩١، ١٩٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٩١.

الحكم المستنصر بإراقتها، وتشدده في منعها في الأندلس.^(١) كما ذكر شعراً نسبته إلى سليمان الظاهر الذي ذكر أنه كان أديباً شاعراً. وفيها يمتدح خضوعه لسلطان الهوى مبيناً أنه لا ضير عليه في أن يتذلل لمن يهوى حتى لو كان سلطاناً شجاعاً تهاب بأسر الليوث الضواري^(٢). كما أورد أبياتاً من قصيدة للمستظهر رواها عنه الوزير أبو عامر بن شهيد في ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين حينما كان خاطباً لها. ويصف ابن شهيد المستظهر بأنه كان مطبوعاً في شعره، ويستعمل الصناعة فيجيد، كما روى ابن حزم أن المستظهر كان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس.^(٣)

ومما بدا واضحاً في منهج ابن حزم في التعريف ببعض الرجال أن يذكر سلسلة نسبه، وهو منهج معروف في علم الحديث، فهو هنا في التاريخ ينهج نهجاً مشابهاً، ففي تعريفه يفتيحين يقول: « وأدركنا فقيهين أحدهما: علي بن محمد بن الحسن بن القاسم بن ادريس بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فقيه بافريقيّا مصرّح بتفضيل عثمان على عليّ بلا تقيّة، والثاني: محمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن محمد بن أحمد بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان بقرطبة، مشهور مصرّح بتفضيل عليّ على عثمان بلا تقيّة »^(٤). ومن التدقيق في التعريف بالرجال قوله كذلك: « أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان »^(٥) فيذكر الكنى والألقاب والأسماء لهم ولآبائهم. وحين يُعرف بالسفاح يقول: « أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب أول خلفاء بني العباس »^(٦). ثم يُعرف بعده بالمنصور فيقول:

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢ - ملحق ١ (في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) ١٩٦، ١٩٥.

(٢) انظر المصدر نفسه: ١٩٨، ١٩٩.

(٣) انظر المصدر نفسه: ٢٠٢.

(٤) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢ - نلّط العروس: ١١٢.

(٥) المصدر نفسه: ٨٧.

(٦) المصدر نفسه: ٤٣.

« أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، أخو السفاح، وهو أول من تسمّى بهذا الاسم »^(١). وفي تعريفه بالخلفاء يقول: « ثم ولي ابن أخيه أبو العباس المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل »^(٢). فاهتمام ابن حزم بالكُنَى والألقاب واضح جداً في تاريخه، وهي سِمَة بارزة في علم الحديث كذلك، من أجل الحكم على نوع الحديث ممّا يُعزّز القول بتأثيره بمنهج علوم الحديث في كتابة التاريخ، وهذا يكسبه المزيد من الدقّة، إلّا أنّه يُقلّل من روح المرونة عنده ولا يسمح بإعطاء حريّة في التفسير أو إرخاء العنان للأراء المتعارضة حول الحوادث. وفي تعريفه ببعض ملوك بني اسرائيل كان أيضاً يُعرّف باسمائهم ويسلسل عدداً كبيراً من آبائهم وأجدادهم فيقول معرّفاً بأحد ملوكهم: « ثم مات ولي مكانه ابنه زخريا بن يارتعام بن يواش بن يهويا حاز بن ياهو بن نمشي »^(٣). وفي الملحق ٢ (شذرات من الروايات التاريخية) أورد الحميدي على لسان ابن حزم روايات كان يتخلّل بعضها أحياناً أبيات شعرية^(٤)، وكان يتبع فيها نهج المحدثين في الإسناد حيث نجده يستخدم لفظ حدثني فلان قال: حدثنا وأحياناً أخبرنا أو أخبرني ويروي السند واحداً عن واحد^(٥).

وسار ابن حزم في كتابة السيرة على ما سار عليه في كتابة الرسائل الأخرى التي كتبها في التاريخ مثل « في أمّهات الخلفاء » و « نقط العروس » ورسالة « في أسماء الخلفاء » فيضع عنوانات على شكل فصول قصيرة يضع تحتها ما يراه مناسباً لها مثل: نسب رسول الله (ﷺ)، مولده ومبعثه وسنّه ووفاته، أعلام رسول الله (ﷺ)، حجّه (ﷺ) وكم اعتمر في الإسلام، غزواته، بعوثه، وغير

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢ - نُقْط العروس : ٤٣.

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢- الخلفاء بعده عليه السلام-صورة أخرى من رسالة الخلفاء والولاة وذكر مدّهم: ١٦٥.

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: ذكر أوقات الحكام من بني اسرائيل: ٢١٧.

(٤) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢- الملحق ٢ (شذرات من الروايات التاريخية): ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠.

(٥) انظر المصدر نفسه: ٢١٩-٢٣٠.

ذلك^(١). وأحياناً كان يكتب كلمة «فصل»^(٢). وأحياناً يكون ما جمع تحت هذا العنوان غير مترابط تماماً فيما بينه، وبعيداً عن العنوان الذي أُدرج تحته.

وفي رسالة «اسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد» يبدو فيها إضافة إلى شدة اهتمام ابن حزم بالحديث النبوي وما يتعلق برواته من الصحابة- وأن مثل ذلك الاهتمام كان أمراً طبيعياً بالنسبة لرجل ملتزم بالإسلام ولأنه كذلك من أئمة المذهب الظاهري- أنه ركّز كثيراً على الإحصاء العددي واعتمد عليه في منهجه التاريخي^(٣). ويمكن أن يُقال مثل ذلك في رسالته «رسالة أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا»^(٤).

وكان أبو محمد ابن حزم يناقش الروايات ويضعها على محك العقل والمنطق السليم، ويبطل بعضها إذا وجدها غير مقبولة حسب معاييرهِ وبخاصة حين يكون هدفه معرفة حقيقة ذات صلة بأمر ديني. فعند ذاك نراه يُمحصّ ويدقّق ويوازن حتى يصل إلى النتائج. هذا ما فعله حين ناقش مزاعم اليهود بوجود التوراة على الرغم من الأدلة التاريخية والعقلية التي تؤكد عدم بقائها نتيجة ماتوا عليهم في عهودهم المختلفة، وأنهم كانوا يعودون لعبادة الأوثان، ويتجاهرون بالكفر وقتل الأنبياء أو مطاردتهم، وأن حكوماتهم في مملكة القدس معظمها كان على هذه السيرة باستثناء أوقات قليلة كانوا يعودون فيها للإيمان. أما دولتهم الثانية بنابلس فلم يعرف أي ملك من ملوكها الإيمان، ولم يسس به أحداً من رعيته، وليس هذا فحسب، بل إن أحداً من كل رعاياهم طيلة عهود حكمهم لم يؤمن أبداً بالله، وظلوا على الوثنية والكفر، يُضاف إلى هذا ما كانت تعرضت له مملكة القدس ومملكة نابلس من غزو ونهب وسبي في أوقات مختلفة^(٥). ويتحدث ابن حزم بعد ذلك قائلاً: «فاعلموا الآن أنه كان مُدْخلوا الأرض المقدسة إثر موت

(١) انظر جوامع السيرة من بدايتها إلى نهايتها.

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢٥٩، ٢٥، ٢٧.

(٣) انظر «اسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد» ملحقة بجوامع السيرة.

(٤) انظر ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ٢٢١.

(٥) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢-الملحق ٢-ذكر أوقات الحكام من بني إسرائيل: ٢٠٩-٢١٨.

موسى عليه السلام إلى ولاية أول ملك لهم- وهو شاول المذكور- سبع رذاتٍ فارقوا فيها الإيمان واعلنوا بعبادة الأصنام. فأولها بقوا فيها ثمانية أعوام، والثانية ثمانية عشر عاماً، والثالثة عشرين عاماً، والرابعة سبعة أعوام والخامسة ثلاثة أعوام وربُّها أكثر، والسادسة ثمانية عشر عاماً، والسابعة أربعين عاماً. فتأملوا أيُّ كتاب يبقى مع تمادي الكفر ورفض الإيمان هذه المدَّة الطوال في بلدٍ صغير مقدار ثلاثة أيامٍ في مثلها فقط. ليس على دينهم واتباع كتابهم أحدٌ على ظهر الأرض غيرهم»^(١).

وفي نهاية هذه الرسالة وبعد العرض التاريخي الذي عرَّضه ابن حزم لتاريخ ملوكهم ومدَّة كل واحد منهم وما جرى من أمور هامة في عهده يخلُصُ إلى النتيجة التالية فيقول: «فقد صحَّ يقيناً أن جميع أسباط بني اسرائيل حاشاً سبط يهوذا وبنيامين ومن كان بينهم من بني هارون بعد سليمان عليه السلام، مدَّة مائتي عام وواحد وسبعين عاماً، لم يظهر فيهم قط إيمان ولا يوماً واحداً فما فوقه، وإنَّما كانوا عبَّاد أوثان ولم يكن قط فيهم نبيٌّ إلا مُخاف، ولا كان للتوراة عندهم لا ذكر ولا رسم ولا أثر، ولا كان عندهم شيء من شرائعها أصلاً، مضى على ذلك جميع عامتهم وجميع ملوكهم وهم عشرون ملكاً وقد سمَّيناهم إلى أن دخلوا في الأمم وتديَّنوا بدين الصابئين الذين كانوا بينهم متملكين»^(٢).

وفي رسالة «التلخيص لوجوه التخليص»، عرض ابن حزم أوضاع الاندلس السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في زمن الفتنة وعاب من خلال ذلك على علماء السوء الذين يُزيَّنون للحكام ما هم فيه من ظلم وفساد، ويكذبون على دين الله بتسويغ ذلك لهم بفتاوى يُصدرونها، مُبيِّناً فيها أن الأمور بلغت من السوء والفساد بحيث أصبح من المتعذَّر على الإنسان المسلم أن يصلَ إلى لقمة الحلال مهما اجتهد ومهما احتاط^(٣). كما بيَّن تأمر الحكام على الرعيَّة وإباحة أموالهم وحرماتهم وأوطانهم لأعدائهم من اليهود والنصارى وتحكيمهم في حياة المسلمين،

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢ - الملحق ٢ - ذكر أوقات الحكام من بني اسرائيل: ٢١٢

(٢) انظر المصدر نفسه: ٢١٨.

(٣) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٣: رسالة التلخيص لوجوه التلخيص: ١٧٣-١٧٧.

واستنصارهم بهم ضد بعضهم بعضاً إلى غير ذلك من الأدواء المستشرية بجسم الأمة في ذلك العصر.^(١)

كانت كتابة ابن حزم للسيرة النبوية صورة يظهر من خلالها منجه العام في كتابة التاريخ خلا بعض الاستثناءات القليلة المتصلة بطبيعة الموضوع، ولا سيما شدة اهتمام ابن حزم بسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يُعدُّ في ذروة الكمال، وكلُّما زاد اقتداء الإنسان بصفاته كان أقرب إلى السعادة. وإحراز الفوز في الدنيا والآخرة، فسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في نظر ابن حزم تُعدُّ وحدها معجزة، فلو لم يكن له غيرها من المعجزات الأخرى المادية والمعنوية - كانت كافية للدلالة على صحة نبوته وهو الأُمِّي الذي لم يقرأ ولم يكتب، وعاش في بيئة بعيدة عن الثقافة والتعليم، وقومه لا يجهلون هذا ولا غيره من سيرته حتى دقائق حياته منذ نعومة أظفاره كانت معروفة لديهم، وأنه محلُّ ثقتهم في اشتهاره بالأمانة والصدق والابتعاد عن كلِّ ما يُشين. فهو على أساس من كلِّ ذلك كما يرى ابن حزم صادق في نبوته من الناحية العقلية، حتى لو لم تكن له معجزة القرآن ولا غيره من المعجزات الأخرى.

وابن حزم في جنوحه إلى التلخيص واستخدام العبارة القصيرة والابتعاد عن التفاصيل والتفريعات إنما يقصد أن يُسهِّل تعلُّم السيرة لمن أراد أن يتعلَّمها ويحيط بجوانبها دونما جهد كبير.

كما لا يتوانى ابن حزم عن ردِّ أيِّ وهم في الرواية عن طريق التدقيق في التواريخ مثلما ردَّ زعماء بحوار دار بين سعد بن معاذ وسعد بن عباد في حادثة الإفك بعد غزوة بني المصطلق فذكر أن ذلك كان وهماً مُتعمِّداً على إيراد التاريخ الصحيح لوفاة سعد بن معاذ (رضي الله عنه) والذي كان بعد غزوة بني قريظة التي حدثت في آخر ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة، وأن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السنة السادسة للهجرة بعد وفاة سعد بن معاذ بسنة وثمانية أشهر^(٢). كما كان يُشتَمُّ أحياناً في كتابته للتاريخ ما فيه سخريه خاصة في

(١) انظر رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٣ - رسالة التلخيص لوجه التلخيص: ١٧٣-١٧٧.

(٢) انظر مقدمة جوامع السيرة: ٩.

العنوانات التي كان يكتبها مثل (خليفةتان تصالحيان)^(١)، و (أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها)^(٢)، و (فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها)^(٣)، و (الاسماء التي تصلح للخلفاء ولم تُستعمل بعد)^(٤).

ويبدو أن رسالة «جُمْل من التاريخ» التي أضيفت إلى جوامع السيرة في الكتاب الذي حققه الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد إنما كانت من أجل صغار السن لئلا يتناولوها عليهم. كما تمكن ابن حزم أن يخلص السيرة النبوية من التشبُّث والبلبلَة التي تُحدثها كثرة الروايات وتعدُّد الآراء.

ونلاحظ في رسالة «نقط العروس» اكتفاء ابن حزم بتقديم معلومات عن الخلفاء وما يتصل بعهودهم من غير أن يُبيِّن رأيه فيما كُتب، وربما كانت هذه الرسالة بما تحتويه من المعلومات مصدراً جيداً لدراسة نظام الخلافة في الإسلام.^(٥)

واتصف ابن حزم بالإنصاف في تاريخه لدولتي بني أمية وبني العباس في بيان المحاسن والمثالب دونما تعصُّب لأيٍّ منهما فنراه يقول في الأمويين: «وانقطعت دولة بني أمية، وكانت دولة عربية، لم يتخذوا قاعدة، إنما كان سكنى كلِّ امرئٍ منهم في داره وضيَّعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجان الأموال، ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد، ويكاتبوهم بالعبودية والملك، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد، وإنما غرضهم الطاعة الصحيحة في التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمال، ويولون الآخر، في الأندلس، وفي السُّند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد، «وبعثوا إليها الجيوش، ولَّوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢: رسالة نقط العروس: ٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ٩٧.

(٤) المصدر نفسه: ٩٧.

(٥) انظر ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والمضاري: ٢٢٧، ٢٢٨.

تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق»^(١). وحينما تحدث عن العباسيين قال: «وانتقل الأمر [بالمشرق] إلى بني العباس بن عبد المطلب رضوان الله عليه وكانت دولتهم أعجمية، سقطت فيها دواوين العرب، وغلب عجم خراسان على الأمر، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً محققاً كسروياً، إلا أنهم لم يعلنوا بسبب أحد من الصحابة، رضوان الله عليهم، بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولعن بنيه الطاهرين من بني الزهراء، وكلهم كان على هذا حاشاً عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله تعالى، فإنهما لم يستجيزا ذلك. وافتترقت في ولاية بني العباس كلمة المسلمين، فخرج عنهم من منقطع الزابيين دون إفريقية إلى البحر المحيط وبلاد السودان، فغلب في هذه البلاد طوائف من الخوارج وجماعية وشيعة ومعتزلة من ولد إدريس وسليمان ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ظهرُوا في نواحي بلاد البربر، ومنهم من ولد معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، تغلبوا على الأندلس وعلى نحو نصف السند»^(٢).

ومثلما كان ابن حزم منصفاً في الحكم على الدول فقد كان كذلك منصفاً في حكمه على الأشخاص.^(٣) وكذلك فإنه اتَّسم بالدقَّة في النواحي الإحصائية إذ حدَّد بالضبط مدَّة ولاية أبي بكر باليوم والشهر والسنة، وولاية عمر كذلك كما كان دقيقاً في ذكر مدد الخلافة لغيرهم أيضاً.^(٤)

وفي مسألة القتال الذي حدَّث بين جيشي علي ومعاوية يرى ابن حزم أن ذاك الخلاف كان ناجماً عن اجتهادين متباينين لهما، فعلي كان يرى تأجيل القصاص من قتلة عثمان حتى تهدأ الفتنة ومعاوية كان يطالب بالقصاص الفوري، وأن القتال الذي جرى بين المسلمين ما كان بأمر من علي ولا بأمر من معاوية، لكنها فتنة أشعلها المندسون في جيشي علي ومعاوية من قتلة عثمان كي لا تدور الدائرة

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢- رسالة في أسماء الخلفاء والولاة: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) انظر ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ٢٣٥.

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسي ج ٢- أسماء الخلفاء والولاة: ١٢٧.

(٤) انظر المصدر نفسه: ١٢٧.

على رؤوسهم فيما لو تم اتفاق عليّ ومعاوية في الرأي. وهذا تحليل منطقي يتلاءم والمنزلة التي كان عليها الصحابة وإخلاصهم وتفانيهم في ما فيه مصلحة الدّين، ولا سيّما أن علياً يرتفع في منزلته على معاوية، مع أن كلا الرجلين كان من كُتّاب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فعليّ مجتهدٌ مصيبٌ، ومعاوية مجتهدٌ مُخطيءٌ وهما مأجوران. ويرى الدكتور عبد الحليم عويس أن ابن حزم كان متعاطفاً مع معاوية في حديثه عن هذه الفتنة^(١). غير أنه ما من دليل يثبت صحة هذه المقولة أو يقنعنا فعلاً أن ابن حزم جانب الحقيقة وحاد عن الصواب. فإبن حزم يظهر شدة عَجَبِهِ ممّن أباح الاجتهاد للمتأخرين من المسلمين كأبي حنيفة والليث ومالك وغيرهم مع ما يتباينون فيه من أحكام شرعية، ولا يرى وقوع مثل هذا الاجتهاد من الصحابة على علو منزلتهم وفضلهم وتقدمهم في العلم^(٢).

وأما في رسالة «المفاضلة بين الصحابة» فنجد ابن حزم بعد أن ينتهي من تفضيل أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) على سائر الصحابة، وبعد أن يردّ على كلّ الاعتراضات ويزيل سائر الشبهات يُقرّر فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) فيقول: «وقال الجاهل: عليّ أتقاهم لله عزّ وجلّ» قال أبو محمد: كَذَبَ هذا الآفك ولقد كان عليّ [رضي الله عنه] تقيّاً إلا أن الفضائل يتفاضل فيها أهلها؛ وما كان أتقاهم لله إلا أبا بكر. والبرهان على ذلك أنه لم يسوّ [قطّ] أبو بكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)^(٣) في كلمة ولا خالف إرادته [عليه السلام] في شيء قط، ولا تأخّر عن تصديقه، ولا تأخّر عن الانتمار له يوم الحديبية، ولا تردّد إذ تردّد من تردّد. وقد تظلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المنبر إذ أراد عليّ نكاح بنت أبي جهل بما قد عُرِف، وما وجدنا لأبي بكر قطّ توقفاً عن شيء أمره^(٤) به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا مرّة واحدة عذره [فيها] رسول الله (صلى الله عليه وسلم)^(٥) وأجاز له فعله، إذ أتى عليه السلام من قباء فوجده يُصلّي بالناس فلما رآه [أبو بكر تأخّر فأشار إليه] رسول الله (صلى

(١) ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) انظر الفصل ج ٤: ١٦٢، ١٦٣.

(٣) وردت في الاصل: لم يسوّ قطّ أبو بكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قطّ.

انظر ابن حزم ورسالة في المفاضلة بين الصحابة: ٢٤١، ٢٤٢.

(٤) وردت في الاصل: عذره فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها (انظر المصدر نفسه: ٢٤١، ٢٤٢).

الله عليه وسلم): «أَنْ أَقِمَ مَكَانَكَ فَحَمْدُ اللَّهِ [تعالى] أَبُو بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَأَخَّرَ فِي الصَّفِّ وَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتَّيِبَ (مَكَانَكَ) حِينَ أَمَرْتُكَ؟» فَقَالَ [أَبُو بَكْرٍ]: «مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قَحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: فَهَذِهِ غَايَةُ التَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ لِرَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم). [وَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَإِذْ قَدْ صَحَّ بِالْبَرَهَانِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم). فَقَدْ وَجِبَ أَنَّهُ أَحْشَاهُمْ لِلَّهِ عِزُّ وَجَلُّ]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^(١) وَالتَّقَى هِيَ الْخَشْيَةُ لِلَّهِ عِزُّ وَجَلُّ^(٢)، ثُمَّ يُثَبِّتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَكْثَرَ جِهَاداً مِنْ عَلِيٍّ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ وَأَكْثَرُ رَوَايَةً قِيَاساً إِلَى مُدَّةِ حُكْمِهِ يَمُدُّهُ حُكْمُ عَلِيٍّ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْرَأُ مِنْ عَلِيٍّ وَمِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ، وَيَذَكِّرُ لَنَا فُضَائِلَهُ الْمَشْهُورَةَ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ يَدْفَعُ لِكُلِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْتَرِضَ بِهِ مَعْتَرِضٌ عَلَى أَقْوَالِهِ، وَيُزِيلُ مِنْ حَوْلِهَا جَمِيعَ الشُّبُهَاتِ^(٣). ثُمَّ يُتَّبَعُ ذَلِكَ بِحَدِيثِهِ عَنْ فَضْلِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَسْتَدِلُّ لَصِحَّةِ قَوْلِهِ بِأَدَلَّةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ حَسَبَ فَهْمِهِ الظَّاهِرِيِّ لَهَا. وَيَرُدُّ أَدَلَّةَ الرُّوَافِضِ قَائِلًا: إِنَّهَا مَوْضُوعَةٌ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْأَدَلَّةِ الَّتِي تَفْضِلُ عَلِيًّا عَلَى عَثْمَانَ. وَيَرَى ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ بَعْدَ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَبَقَةُ الْمُهَاجِرِينَ ثُمَّ أَهْلُ بَدْرٍ ثُمَّ بَاقِي الْمَشَاهِدِ، مُبَيِّنًا فَضْلَ التَّابِعِينَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ. وَيَرُدُّ أَدَلَّةَ الرُّوَافِضِ بِتَفْضِيلِ قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لِجَرْدِ الْقَرَابَةِ بَعْدَ أَنْ يُورَدَ أَدْلَتُهُمْ، ثُمَّ يَخْتَمُ الرِّسَالَةَ بِبَيَانِ تَسْوِيَةِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ النَّاسِ كَافَّةً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَسْتَدِلُّ لَهُ بِالنُّصُوصِ وَفَهْمِهِ الظَّاهِرِيِّ لَتِلْكَ النُّصُوصِ^(٤). وَسَوَاءٌ أَكَانَ ابْنُ حَزْمٍ قَاصِداً أَمْ غَيْرَ قَاصِدٍ فَإِنَّهُ قَدْ اسْتَعْرَضَ عُضْلَاتِهِ لِعِلْمِهِ الْغَزِيرِ فِي النُّصُوصِ، وَفِي عُلُومٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ كَانَ يُوَظِّفُهَا، وَلَقَدْ أَظْهَرَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ كُلِّهِ ذِكَاةً لَامِعاً وَقَدْرَاتٍ مَتَالِقَةً فِي مَجَالِ الدِّرَاسَةِ وَالْمَوَازَنَةِ وَالتَّحْلِيلِ وَالِاسْتِنْتَاجِ.

(١) سورة فاطر: الآية: ٢٨.

(٢) انظر ابن حزم ورسالة في المفاضلة بين الصحابة: ٢٦٢-٢٨٠.

(٣) انظر المصدر نفسه: ٢٢٠-٢٦٢.

(٤) انظر المصدر نفسه: ٢٦٢-٢٨٠.